

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة

هَدِيَّةُ تاجِر

ما هي هَذه الحِكايات الشَّعْبِيَّة»؟

إنَّها لَمَحات مِنَ الماضي وصُوَر مِن التُّراث بأساطيره وتَقاليده وعاداته، نَسيناها أَو كِدْنا نَنسى مُعظَمها، يُعيد إحياءَها الأَديب إميل يوسف عوّاد بقَلَمه الصّادِق الشّفّاف.

مَع هَذه الحِكايات، يَعود أَبناء الجِيل الجَديد إلى جُذورهم الّتي هُمْ عنها غافِلون، فما يَنطبِق على قَرية يَنطبِق على كُلّ القُرى، وما يَحْدث لِفَرْد قد يَحْدث مَثيلُه لباقي أفراد المُجتمَع.

إنَّها دَعوة لِلرُّجوع إلى الضَّمير والسَّيْر في طَريق الإيمان بِالله ومَحبَّة الإنْسان لِأخيه الإنْسان والارْتِباط بِالطَّبيعة والأَرْض والوَطَن، مِن أَجْل حَياة هانِئة وادِعة بَريئة.

كُلّ ذَلكَ بأُسلوبٍ رَشيقٍ جَذّابٍ هو أَبْعَدُ ما يَكونُ عن الوَعْظِ المُباشِرِ والعِباراتِ الطَّنّانةِ.

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة

هَدِيَّة تَاجِر



إميل يوسُف عوّاد



مكتبة لبنان ناشرون



كانَتْ يَتيمَةَ الوالِدَيْنِ فَقيرَةً، ومِنْ قَرْيَةٍ نائِيَةٍ. أَرادَتْ أَنْ تَرْبَحَ عَيْشَها، فَنَزَلَتْ إلى المَدينَةِ واشْتَغَلَتْ «غَسّالَة» تُنَظِّفُ البُيوتَ والمَحلّاتِ التِّجارِيَّةَ.



وَجَدَتِ الحَياةَ في المَدينَةِ صَعْبَةً بِالنِّسْبَةِ لِفَتاةٍ فَقيرَةٍ وَحيدَةٍ مِثْلِها، فَتَمَنَّتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ وتَعيشَ في كَنَفِ رَجُلٍ تَحْتَمي بِهِ وتُقاسِمُهُ شَظَفَ العَيْشِ. وَحَدَثَ أَنْ تَعَرَّفَتْ إلى شابٍّ أَخْبَرَها بِأَنَّهُ يَشْتَغِلُ لَيْلًا في مَصْنَعٍ لِلكَرْتونِ، فَتَزَوَّجَتْهُ.

وها هِيَ، بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ زَواجِها، تَجِدُ نَفْسَها وَحيدَةً مَعَ طِفْلٍ لَمْ يَتَجاوَزِ السَّنَةَ مِنْ عُمْرِهِ، في غُرْفَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنْ حِجارَةِ الباطونِ ومَسْقوفَةٍ بِأَلْواحِ التُّوتياءِ، وأَمامَها قِطْعَةُ أَرْضٍ صَغيرَةٌ مُهْمَلَةٌ جَعَلَها المارَّةُ بُؤْرَةً لأَوْساخِهِمْ.





وزَوْجُها لا يَشْتَغِلُ في المَصْنَعِ، بَلْ هو يَذْهَبُ كُلَّ لَيْلَةٍ لِيُقامِرَ في أَحَدِ النَّوادي، ويَعودُ في الصَّباحِ لِيَنامَ طِيلَةَ نَهارِهِ. وبَدَلًا مِنْ أَنْ يُقاسِمَها شَظَفَ العَيْشِ ويَشْتَغِلَ ويَقومَ بِواجِباتِ البَيْتِ، كانَ يُقاسِمُها أُجورَ أَتْعابِها ويَضْرِبُها إذا تَلَكَّأَتْ عَنْ تَلْبِيَةِ حاجاتِهِ. وأَخيرًا تَرَكَها وانْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ.



كانَتْ تَحْمِلُ طِفْلَها عَلى ظَهْرِها كُلَّ يَوْمٍ وتَذْهَبُ إلى الشُّغْلِ. في المَحَلاتِ التِّجارِيَّةِ تَضَعُ طِفْلَها في قَلْبِ صُنْدوقٍ فارِغٍ، وفي البُيوتِ تَضَعُهُ في غُرْفَةٍ وتُقْفِلُ البابَ عَلَيْهِ.



والكَثيرونَ مِنَ الّذينَ كانَتْ تَشْتَغِلُ عِنْدَهُمْ كانوا يَتضايَقونَ مِنَ الطِّفْلِ ومِنْ صُراخِهِ وبُكائِهِ. ماذا تَفْعَلُ بِهِ؟ طَلَبَتْ مِنْ جيرانِها أَنْ تَتْرُكَهُ عِنْدَهُمْ، فَرَفَضوا.



كَبِرَ الطِّفْلُ وبَدَأَ يَمْشي، وانْقَطَعَ عَنِ البُكاءِ والصُّراخِ. وشَعَرَتِ الأُمُّ بِأَنَّ الهُمومَ في صَدْرِها تَضاءَلَتْ؛ خُصوصًا وأَنَّ بَعْضَ التُّجّارِ بَدَأوا يُكَلِّفونَ ابْنَها بِبَعْضِ الأَعْمالِ البَسيطَةِ مِثْلِ شِراءِ السَّجائِرِ ورَمْيِ الأَقْذارِ، ويُكافِئونَهُ بِمِقْدارٍ ضَئيلٍ مِنَ المالِ.

وكَمْ كانَ فَرَحُ ابْنِها عَظيمًا عِنْدَما كانَ يَعودُ في المَساءِ مَعَ أُمِّهِ إلى البَيْتِ ويَقْلِبُ جَيْبَهُ ويُخْرِجُ مِنْهُ قِطَعَ النُّقودِ الّتي جَمَعَها مِنْ هُنا وهُناكَ، ويَعُدُّها مُتَفَحِّصًا كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْها، وكانَ يَضَعُ النُّقودَ بَعْدَ ذَلِكَ في عُلْبَةٍ صَغيرَةٍ ويُحْكِمُ إقْفالَها ويُعْطيها إلى أُمِّهِ قائلًا: «أَخْفيها ولا تَدَعي أَحَدًا يَأْخُذُها». فَتَبْكي الأُمُّ فَرَحًا وتَضُمُّهُ إلى صَدْرِها، ثُمَّ تَنْظُرُ إلى السَّماءِ وتَشْكُرُ رَبَّها: «لَنْ يَكونَ وَلَدي مُقامِرًا مِثْلَ أَبيهِ».





كَبِرَ الصَّبِيُّ وتَفَتَّحَتْ عَيْناهُ عَلى الحَياةِ. وشَعَرَ بِالتَّعاسَةِ عِنْدَما وَجَدَ أَنَّ الأَوْلادَ الّذينَ هُمْ مِنْ عُمْرِهِ يَذْهَبونَ إلى المَدْرَسَةِ صَباحًا مُتَأَبِّطين كُتُبَهُمْ وَكُرّاساتِهم ويَعودونَ في المَساءِ سُعَداءَ. سَأَلَ أُمَّهُ:

– لماذا يا أُمّي لا أَذْهَبُ إلى المَدْرَسَةِ مِثْلَ بَقِيَّةِ الأَوْلادِ؟

أَجابَتْه أُمُّهُ:

– المَدْرَسَةُ يا وَلَدي لِلأَغْنِياءِ.

– كُلُّ هَؤُلاءِ النّاسِ أَغْنِياءُ؟ أَنا أُحِبُّ المَدْرَسَةَ. هُناكَ أَكْتُبُ وأَقْرَأُ وأَلْعَبُ.

فَهَزَّتِ الأُمُّ رَأْسَها لا تَعْرِفُ ما تَقولُ لابْنِها.

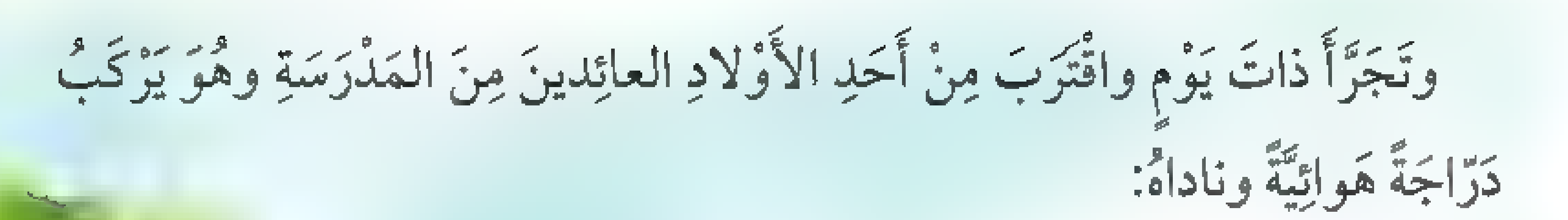




ورَسَخَتْ فِكْرَةُ الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ في رَأْسِ الصَّبِيِّ. وكانَ كُلَّما شاهَدَ الأَوْلادَ ذاهِبينَ أَوْ عائِدينَ مِنَ المَدْرَسَةِ وَقَفَ يَتَفَحَّصُهُمْ ويَعُدُّهُمْ إلى أَنْ يَتْعَبَ مِنَ العَدِّ. إنَّ عَدَدَهُمْ كَبيرٌ، ورُبَّما هُوَ الوَحيدُ في هَذِهِ المَدينَةِ الّذي لا يَذْهَبُ إلى المَدْرَسَةِ.



وها هُوَ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ، وهُوَ لَمْ يَزَلْ يُرافِقُ أُمَّهُ صَباحًا إلى مَكانِ عَمَلِها ويَعودُ مَساءً مَعَها إلى البَيْتِ.



وتَجَرَّأَ ذاتَ يَوْمٍ واقْتَرَبَ مِنْ أَحَدِ الأَوْلادِ العائِدينَ مِنَ المَدْرَسَةِ وهُوَ يَرْكَبُ دَرّاجَةً هَوائِيَّةً وناداهُ:

- مَرْحَبًا.

فَأَوْقَفَ التِّلْميذُ دَرّاجَتَهُ مُسْتَوْضِحًا الصَّبِيَّ:

- ما بِكَ تُناديني؟



وبِحَياءٍ كَبيرٍ قالَ لَهُ الصَّبِيُّ:

- هَلْ تُعْطيني درّاجَتَكَ؟ أُعيدُها لَكَ بَعْدَ دَقيقَةٍ.

فنَهَرَهُ راكِبُ الدَّرّاجَةِ قائِلًا:

- اُبْعُدْ مِنْ هُنا أَيُّها الوَسِخُ!

مَسَحَ الصَّبِيُّ دَمْعَةً كَبيرَةً عَنْ وَجْهِهِ وغابَ في زَحْمَةِ النّاسِ.

واتَّجَهَ نَحْوَ مَحَلٍّ تِجارِيٍّ يَبيعُ أَصْنافًا كَثيرَةً، ويَعْرِضُ أمامَ بابِهِ بَعْضَ الدَّرّاجاتِ الهَوائِيَّةِ. وكانَ صاحِبُ المَحَلِّ يُكَلِّفُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِشِراءِ جَريدَةٍ أَوْ عُلْبَةِ سَجائِرَ أَوْ رَمْيِ بَعْضِ الأَقْذارِ، ويُعْطيهِ مُقابِلَ ذَلِكَ عِلْكَةً أَوْ قِطْعَةً مِنَ الشّوكولاتَة أَوْ بالونًا. وَقَفَ أَمامَ الدَّرّاجاتِ المَعْروضَةِ في الخارِجِ، يَنْظُرُ إلى واحِدَةٍ ويُمْسِكُ الأُخْرى. وسَأَلَ صاحِبَ المَحَلِّ:



- كَمْ هُوَ ثَمَنُ هَذِهِ الدَّرّاجَةِ؟

فَأَجابَهُ التّاجِرُ:

- مِائَةُ جُنَيهٍ.

- لَيْسَتْ غالِيَةً يا سَيِّدي. غَدًا سَآتيكَ بِعُلْبَةِ النُّقودِ، وإذا وَجَدْتَها غَيْرَ كافِيَةٍ فَأُمّي تَدْفَعُ لَكَ الباقِي.
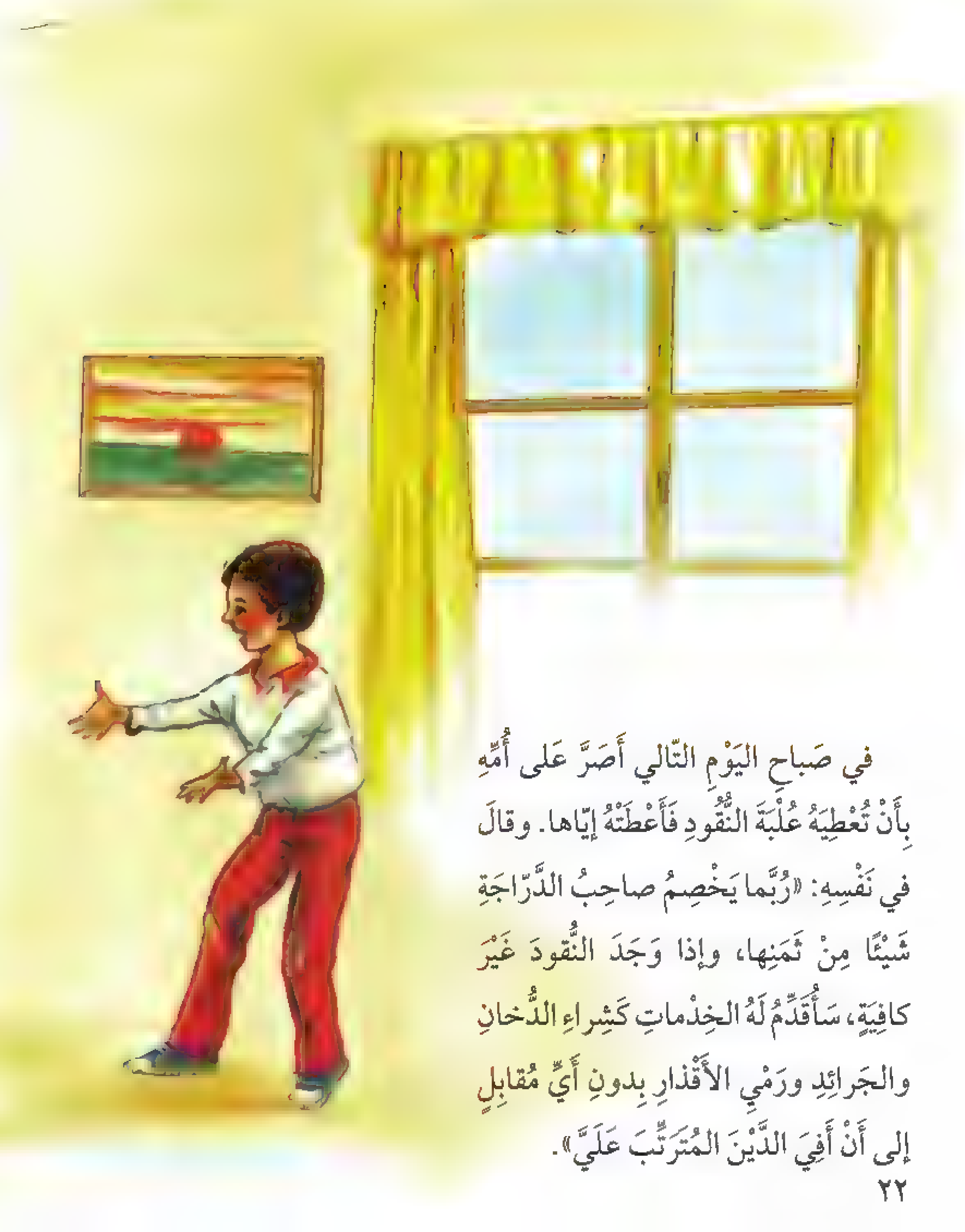


عادَ الصَّبيُّ إلى البَيْتِ تِلْكَ اللَّيلَةَ شارِدَ الفِكْرِ، وأَخْبَرَ أُمَّهُ عَنْ راكِبِ الدَّرّاجَةِ الّذي شَتَمَهُ وقالَ لَهُ: «اُبْعُدْ أَيُّها الوَسِخُ». ثُمَّ أَخْبَرَها أَنَّ ثَمَنَ الدَّرّاجَةِ هُوَ مِائَةُ جُنَيهٍ. وطَلَبَ مِنْها أَنْ تُعْطِيَهُ في صَباحِ الغَدِ عُلْبَةَ نُقُودِهِ. فَفيها حَسَبَ اعْتِقادِهِ ما يَكْفي لِشِراءِ الدَّرّاجَةِ.







ونامَ لَيْلَهُ في حُلْمٍ طالَ حتّى الفَجْرِ. حلَمَ أَنَّهُ اشْترى درّاجةً مُلوَّنَةً بِالأَزْرَقِ والأَحْمَرِ والأَبْيَضِ، ذاتَ مُحرِّكاتٍ مُحاطَةٍ بِقُضْبانٍ فِضِّيَّةِ اللَّوْنِ لمّاعةٍ، وذاتَ مِقْوَدٍ مُغَلَّفٍ بِالجِلْدِ الأَسْوَدِ، وأَنَّهُ يَقودُها بِسُرْعَةِ البَرْقِ، وأَنَّ سِباقًا جرى بَيْنَهُ وبَيْنَ راكِبي الدَّرّاجاتِ فَحَلَّ هُوَ الأَوَّلَ وصَفَّقَتْ لَهُ جُموعٌ غَفيرَةٌ مِنَ المُشاهِدينَ.



فِي صَباحِ اليَوْمِ التّالي أَصَرَّ عَلى أُمِّهِ بِأَنْ تُعْطِيَهُ عُلْبَةَ النُّقُودِ فَأَعْطَتْهُ إِيّاها. وقالَ في نَفْسِهِ: «رُبَّما يَخْصِمُ صاحِبُ الدَّرّاجَةِ شَيْئًا مِنْ ثَمَنِها، وإِذا وَجَدَ النُّقودَ غَيْرَ كافِيَةٍ، سَأُقَدِّمُ لَهُ الخِدْماتِ كَشِراءِ الدُّخانِ والجَرائِدِ ورَمْيِ الأَقْذارِ بِدونِ أَيِّ مُقابِلٍ إِلى أَنْ أَفِيَ الدَّيْنَ المُتَرَتِّبَ عَلَيَّ».



وها هُوَ بِرِفْقَةِ أُمِّهِ أَمامَ الدَّرّاجَةِ، يُوَزِّعُ نَظَراتِهِ بَيْنَ الدَّرّاجَةِ وأُمِّهِ والتّاجِرِ. ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَتَحَ عُلْبَةَ نُقُودِهِ وقالَ مُخاطِبًا التّاجِرَ:



- سَيِّدي، ها إنّي جِئْتُكَ بِالنُّقودِ. عُدَّها، وإذا وَجَدْتَ المَبْلَغَ غَيْرَ كافٍ فَأَنا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَشْتَغِلَ لَكَ مُقابِلَ ما تَبَقَّى مِنَ الثَّمَنِ.



فَضَحِكَ التّاجِرُ طَويلًا وتَناوَلَ العُلْبَةَ وأَخَذَ يَعُدُّ ما فيها. وعِنْدَما وَجَدَ أَنْ لَيْسَ فيها إلّا رُبْعُ الثَّمَنِ قالَ لِلصَّبِيِّ:

- المَبْلَغُ غَيْرُ كافٍ.



وأَمْسَكَتِ الأُمُّ بِيَدِ وَلَدِها وشَدَّتْ بِهِ إلى الوَراءِ وهِيَ تَقولُ لِلتّاجِرِ:

- الدَّرّاجاتُ لِلأَغْنِياءِ ولَيْسَ لِلفُقَراءِ مِثْلِنا.



فِي الطَّرِيقِ ناقَشَتِ الأُمُّ وَلَدَها. وعِنْدَما أَصَرَّ الصَّبِيُّ عَلى رَغْبَتِهِ بِشِراءِ دَرّاجَةٍ، وعَلَتِ الأَصْواتُ بَيْنَهُما، لَمْ تَجِدِ الأُمُّ حيلَةً لإِسْكاتِهِ إِلّا الضَّرْبَ. فَصَفَعَتْهُ بِقُوَّةٍ عَلى خَدَّيْهِ، صَفْعَةً عَلى الخَدِّ الأَيْمَنِ وصَفْعَةً عَلى الخَدِّ الأَيْسَرِ.





وعِنْدَمَا أَرادَتْ أَنْ تُمْسِكَ بِشَعرِهِ أَفْلَتَ مِنْ يَدَيْها ورَكَضَ هارِبًا. وبِقَصْدِهِ أَنْ يَعْبُرَ مِنْ رَصيفٍ إلى رَصيفٍ آخَرَ؛ لَكِنَّ سَيّارَةً مُسْرِعَةً صَدَمَتْهُ.

أُدْخِلَ الصَّبِيُّ إلى المُسْتَشْفى، وتَبَيَّنَ أَنَّ كَسْرًا قَدْ أصابَ إحْدى ذِراعَيْهِ. وعَلِمَ التّاجِرُ صاحِبُ الدَّرّاجاتِ بِالحادِثِ.





حَمَلَ التّاجِرُ دَرّاجَةً وذَهَبَ إلى المُسْتَشْفى وقالَ لإحْدى المُمَرِّضاتِ:

- أَرْجو يا آنِسَةُ تَسْليمَ هَذِهِ الدَّرّاجَةِ إلى الصَّبِيِّ الّذي صَدَمَتْهُ السَّيّارَةُ نَهارَ أَمْسِ وكُسِرَتْ ذِراعُهُ. قولي لَهُ إنَّها هَدِيَّةٌ، وإنّي أَتَمَنّى لَهُ الشِّفاءَ.

تَسَلَّمَ الصَّبِيُّ الهَدِيَّةَ والْتَفَت مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِهِ فَشاهَدَ الرَّجُلَ الّذي حَمَلَها إِلَيْهِ، وإِذا هُوَ تاجِرُ الدَّرّاجاتِ الّذي كانَ عِنْدَهُ قَبْلَ الحادِثِ، فَصاحَ بِهِ:

- أَشْكُرُكَ يا سَيِّدي. الله يُبارِكُ فِيكَ يا سَيِّدي.



كتب الفراشة - حكايات شعبية

١. تاكسي أبو شاكر

٢. العَنزة وَالغولَة

٣. أبو الجِنّ

٤. صندوق الدُّنيا

٥. هَدِيَّة تاجِر

٦. الشَاعِر وَبِنت المَلك

مَكتبة لبنان ناشِرون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت، لبنان

الطبعة الأولى، ١٩٩٦
طُبع في لبنان
رقم الكتاب 01C193105



كتب الفراشة

حكايات شعبيّة — ٥ . هَدِيَّة تاجِر

هَذه قِصّة وَلَد مِسكين ليسَ له، في الحَياة، مِن مُعيل سِوى أُمِّه الفَقيرة.

حُرِمَ رِم المَدرسةَ، وعاشَ عيشةً مُرَّة، واضْطُرَّ لِلعَمَل، منذُ الصِّغَر، لِيُساعِدَ أُمَّه.

لَكِنَّ فَقْرَه لم يُطفِئ شُعْلةَ الأمَل في قَلْبه، وكانَت غايَةَ أَحْلامه الحُصول عَلى درّاجَة لا يَملك شَيْئًا مِن ثَمَنها.

فَهَلْ سَيَتمكَّن مِن تَحْقيق حُلمه؟





مَكتَبة لبنان ناشِرون